﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البقرة: 212]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر حال من بدّلوا نعمة الله أتبعه بذكر أسباب التّبديل والبقاء على الكفر، وهو وقوعهم في حبّ زينة الحياة الدّنيا، فعرّفهم بتزيينها للكافرين تسلية للمؤمنين فيما حُفَّ بمطلوبهم الأخروي من المكاره، وأخبرهم بما لهم من المكانة في الآخرة؛ إن صبروا، واتّقوا، وعرّفهم ضَعْفَ عُقولِ الكُفّارِ والمُشْرِكينَ في تَرْجيحِ الفاني مِنْ زينَةِ الدُّنْيا عَلى الباقي مِنْ دَرَجاتِ الآخِرَةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُيِّنَ﴾: معناه زيادة محبّبة تتعلَّق بظاهر الشّيء (ناشئة) عمّا يزخرُ به باطنُهُ، ومن ذلك الأصل: جاء المعنى الشّائع للتّزيّن، وهو التّحلّي بِحِلْيةٍ مجتلَبَةٍ، تقليدًا لما هو ناشئٌ من البدن، كالتّجمّل بالأصباغ ونحوها، فالزَّيْن يدلُّ على حُسن الشّيء وتحسينه، والزَّيْن نقيضُ الشَّيْن، يقال: زَّينت الشّيء تَزْيينًا، وازَّيَّنتِ الأرضُ، وازدانت؛ إذا حَسَّنَها عُشْبُها.

والزّينة: الحِلْيةُ الظّاهرةُ، والزّينة الحقيقيّة ما لا يشينُ الإنسانَ في شيءٍ من أحواله لا في الدّنيا، ولا في الآخرة، والتّزيينُ التّحسينُ المدرَك بالحسّ دونَ المدرَك بالعقْل، وهو المعنى السياقي، ولهذا جاء في أوصاف الدّنيا دونَ أوصاف الآخرة[2].

2) ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾: السّخرية: تَعَجُّبٌ مَشوبٌ بِاحْتِقارِ الحالِ المُتَعَجَّبِ مِنْها، فيدلُّ على احتقار واستذلال، ومن الباب: سَخِرت منه، إذا هزِئت به، واسْتَسخرتُه للهُزْءِ منه.

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/65.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين)، والرّاغب، المفردات: (زين)، وتفسير الرّاغب: 1/436، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زين)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زين).

وأصل (سخر): انقيادٌ بيسر مع عدم مقاومةٍ، ومن الانقيادِ مع عدمِ المقاومة، وهو خفّةُ حالٍ وقَدْر، قالوا: "سَخِر منه سِخْريًّا وسُخْريًّا: هزئ"، وهذا يعبّر عنِ الاستخفافِ وعدمِ التّقدير، وهو المعنى السياقي، وقيل: رجلٌ سُخَرَةٌ؛ إذا كان يُكثر السُّخريةَ بغيرِه، وَسُخْرَةٌ؛ إذا كان يُسْخَرُ منه[1].

3) ﴿يَرْزُقُ﴾: الرّزق: ما يدخل الجوف من طعام، ونحوه دائمًا، ويطلق الرّزق في الأصل على الغذاء، والرّزق يطلق تارّة على العطاء الجاري، نحو: رزَقَ السّلطانُ جندَه، ويكون دنيويًّا، وأخرويًّا، وتارّة يُطلق على النّصيب، كقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النّحل: 75]، وعلى ما يصل إلى الجوف، ويتغذّى به، ويطلق على كلّ خيرٍ وصل إلى صاحبه، نحو: رُزِق فلانٌ علمًا، ثمّ يطلق على ما يعطيه اللّه العبدَ من مال وخيرٍ يَطْعَم منه، ويَنْتَفِع به، وهو المعنى السياقي هنا.

والرّازِقُ يقال لخالق الرّزق، ومعطيه، والمسبّب له، وهو اللّه تعالى، ويقال ذلك للإنسان الذي يصير سببًا في وصول الرّزق[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الدُّنيا حُلّيت في أعيُنِ الكفّارِ، وجُمِّلت في قلوبِهم، وما فيها من الشهوات والملذّات، فرَضُوا بها، وآثَرُوها على نعيمِ الآخرة، ومع ذلك يستهزئون بالّذين آمَنوا؛ لعزوفِهم عن الدُّنيا وزُخرفِها، وغفَل هؤلاءِ الكفّارُ عن أنَّ المفاضلةَ الحقيقيَّةَ هي في الدّار الآخرة، حيثُ جُعل أهلُ الإيمان والتّقوى أعْلَى منهم وفوقهم بدخولِهم الجنَّة، لهم فيها ما يشتَهون، والذين كفَروا تحتهم في النّار في عذابٍ دائم، لا ينقطعُ عنهم، وهذا من عدل اللّه الذي يُعطي أهل تقواه من فضلِه بلا إحصاءٍ ولا حَصْرٍ، ويعاقب من كفر به، وعصاه.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفَاعِلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

و﴿زُيِّنَ﴾ بالبناء للمفعول في قراءة جمهور القرّاء، وجاء بصيغة الماضي للدّلالة على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر)، والرّاغب، المفردات: (سخر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سخر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سخر)، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق)، والرّاغب، المفردات: (رزق)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رزق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رزق).

أنّ معنى فعل التّزيين أمر مستقرّ متحقّق، وَحُذِفَ الفاعِلُ لِفَهْمِ المَعْنى، واختلف في فاعل التّزيين على أقوال:

تَعَدُّدُ مُوجِبَاتِ التَّزْيِينِ، وشِدَّةُ تَعَلُّقِ الْكُفَّارِ بِاللَّذَّاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ

الأوّل: أنّ الفاعل هُوَ اللّه تَعالى، يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قِراءَةُ مُجاهِد، وَحُمَيْدِ بْنِ قَيْسٍ، وَأَبي حَيْوَةَ: (زَيَّنَ) - عَلى البِناءِ لِلْفاعِلِ -، وَفاعِلُهُ ضَميرٌ يَعودُ عَلى اللّهِ تَعالى؛ إذْ قَبْلَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وَتَزْيينُهُ تَعالى إيّاها لَهُمْ بِما وَضَعَ في طِباعِهِمْ مِنَ المَحَبَّةِ لَها، فَيَصيرُ في نُفوسِهِمْ مَيْلٌ وَرَغْبَةٌ فيها، أَوْ بِالشَّهَواتِ التي خَلَقَها فيهِمْ، وَإِلَيْهِ أَشارَ بِقَوْلِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14]، وَإِنَّما أَحْكَمَهُ مِنْ مَصْنوعاتِهِ، وَأَتْقَنَهُ، وَحَسَّنَهُ، فَأَعْجَبَهُمْ بَهْجَتُها، واسْتَمالَتْ قُلوبَهُمْ، فَمالوا إِلَيْها كُلِّيَّةً، وَأَعْطَوْها مِنَ الرَّغْبَةِ فَوْقَ ما تَسْتَحِقُّهُ[1].

وقال البيضاويّ: المزيّن في الحقيقة هو اللّه تعالى؛ إذ ما من شيء إلّا هو فاعله، ويدلّ عليه قراءة (زَيَّنَ) على البناء للفاعل، وكلٌّ مِنَ الشّيطان والقوّة الحيوانيّة وما خلقه اللّه فيها مِنَ الأمور البهيّة والأشياء الشّهيّة، مزيِّنٌ بالعَرَض[2].

الثّاني: أنّ المزيّن هو الشّيطان زيّن لهم الدّنيا، وحسّنها في أعينهم بوساوسه وإغوائه، وحبّبها إليهم، فلا يريدون غيرها[3]، قال ابن المنيّر: وردت إضافة التّزيين إلى اللّهِ تعالى، وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز، وهذه الآية تحتمل الوجهين، لكن الإضافة إلى قدرة اللّهِ تعالى حقيقة، والإضافة إلى غيره مجازٌ، على قواعد السّنّة[4].

الثّالث: أنّ فاعل التّزيين أمورٌ كثيرة، يَصْلُحُ كُلٌّ مِنْها أَنْ يُعَدَّ فاعِلًا لِلتَّزْيينِ حَقيقَةً أَوْ عُرْفًا، قال ابن عاشور: حُذِفَ فاعِلُ التَّزْيينِ؛ لِأَنَّ المُزَيَّنَ لَهُمْ أُمورٌ كَثيرَةٌ: مِنْها خَلْقُ بَعْضِ الأَشْياءِ حَسَنَةً بَديعَةً كَمَحاسِنِ الذَّواتِ والمَناظِرِ، وَمِنْها إِلْقاءُ حُسْنِ بَعْضِ الأَشْياءِ في نُفوسِهِمْ، وَهِيَ غَيْرُ حَسَنَةٍ كَقَتْلِ النَّفْسِ، وَمِنْها إِعْراضُهُمْ عَمَّنْ يَدْعوهُمْ إِلى الإِقْبالِ عَلى الأُمورِ النّافِعَةِ، حَتّى انْحَصَرَتْ هِمَمُهُمْ في التَّوَغُّلِ مِنَ المَحاسِنِ الظّاهِرَةِ التي تَحْتَها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/353.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/495.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/284.
(4) ابن المنيّر، الانتصاف: 1/254.

العارُ، لَوْ كانَ باديًا، وَمِنْها ارْتِياضُهُمْ عَلى الانْكِبابِ عَلى اللَّذّاتِ دونَ الفِكْرِ في المَصالِحِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمورٍ يَصْلُحُ كُلٌّ مِنْها أَنْ يُعَدَّ فاعِلًا لِلتَّزْيِينِ حَقِيقَةً أَوْ عُرْفًا، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ طُوِيَ ذِكْرُ هَذا الفاعِلِ تَجَنُّبًا لِلإطالَةِ، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ حَذْفُ الفاعِلِ لِدِقَّتِهِ؛ إذِ المُزَيِّنُ لَهُمُ الدُّنْيا أَمْرٌ خَفِيٌّ، فَيَحْتاجُ في تَفْصِيلِهِ إلى شَرْحٍ في أَخْلاقِهِمْ، وَهُوَ ما اكْتَسَبَتْهُ نُفوسُهُمْ مِنَ التَّعَلُّقِ بِاللَّذّاتِ وَبِغَيْرِها، مِنْ كُلِّ ما حَمَلَهُمْ عَلى التَّعَلُّقِ بِهِ التَّنافُسُ أَوِ التَّقْلِيدُ، حَتّى عَموا عَمّا في ذَلِكَ مِنَ الأَضْرارِ المُخالِطَةِ لِلَّذّاتِ، أَوْ مِنَ الأَضْرارِ المُخْتَصَّةِ المُغَشّاةِ بِتَحْسِينِ العاداتِ الذَّمِيمَةِ، وَحَمَلَهُمْ عَلى الدَّوامِ عَلَيْهِ ضَعْفُ العَزائِمِ النّاشِئُ عَنِ اعْتِيادِ الاسْتِرْسالِ في جَلْبِ المُلائِماتِ دونَ كَبْحٍ لِأَزِمَّةِ الشَّهَواتِ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ (الذِينَ):

الْكُفْرُ حَامِلٌ عَلَى شِدَّةِ التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هم كفّار مكّة[2]، ويدخل فيها مَن يشمله هذا الوصف، وَلَيْسَ المُرادُ بِالَّذينَ كَفَروا أَهْلَ الكِتابِ مِنْ مُعْلِنٍ وَمُنافِقٍ، كَما رُوِيَ عَنْ مُقاتِلٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِن اصْطِلاحِ القُرْآنِ التَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِالَّذينَ كَفَروا، وَلِأَنَّهُمْ لَوْ كانوا هُمُ المُرادَ؛ لَقيلَ زُيِّنَ لَهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ بَني إِسْرائيلَ، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُناسِبُ حالَ المُشْرِكينَ، لا حالَ أَهْلِ الكِتابِ[3].

ووقع التَّعبيرُ عَنْهُم بالاسْمِ الموصولِ؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ شدَّة تَعَلُّقِهم بالحياةِ الدُّنيا وسُخْريتَهم من أهل الإيمَانِ أمرٌ حَمَلَهُم عَلَيْهِ الكُفْرُ، فالاسْمُ الموصُول جَارٍ مجْرَى التَّعليل.

شِدَّةُ حُبِّ الْكُفَّارِ لِلدُّنْيَا وَقُوَّةُ تَعَلُّقِهِمْ بِمَنَافِعِهَا

نُكْتَةُ حَذْفِ الْمُضَافِ:

﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: نائب فاعل، ولم يَحتج فعله ﴿زُيِّنَ﴾ إلى إثْباتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/294-295.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/352.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/294.

عَلامَةِ تَأْنيثٍ لِلْفَصْلِ بينهما بالجارِّ والمجرور وصلة الموصول، وَلِكَوْنِه مُؤَنَّثًا غَيْرَ حَقيقِيِّ التَّأْنيثِ[1].

و﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ مُرادٌ بها ما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الحَياةُ مِنَ اللَّذّاتِ والمَنافِعِ، وَهُوَ على حَذْفِ مُضافٍ اشْتُهِرَ حَذْفُهُ، أَيْ: مَنافِعِ الحَياةِ الدُّنْيا، أو حُبُّ الحَياةِ الدُّنْيا[2]، ونكتةُ حَذْفِه: الإشعَارُ بأنَّ شدَّةَ حبِّهم للدُّنيا وقوَّةَ تَعَلُّقِهم بمنافِعِهَا بِمَنْزِلةِ التَّعلُّق بالدُّنيا ذَاتِها.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ التَّزْيِينِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي، وَعَنِ السُّخْرِيَّةِ بِالْمُضَارِعِ:

رُسُوخُ صِفَةِ السُّخْرِيَّةِ فِي نُفُوسِ أَهْلِ الْكُفْرِ؛ لِاغْتِرَارِهِمْ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

جملة: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مَعْطوفَةٌ على جُمْلَةِ: ﴿زُيِّنَ﴾، عطف جُمْلَة فِعْلِيَّة على فِعْلِيَّة، وَلا يُلْحَظُ فيها عَطْفُ الفِعْلِ عَلى الفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَلْزَمُ اتِّحادُ الزَّمانِ، وَإِنْ لَمْ يَلْزَمِ اتِّحادُ الصّيغَةِ، وعدل عَنِ المَاضي (سَخِروا) إلى المضارع ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والتَّكرارِ وَالاسْتِمْرَار، وأنَّ سُخْرِيتَهم مِن أهل الإيمان طَبْعٌ راسِخٌ فِيهِمْ.

وَيجوز أن تكون عَلى الاسْتِئْنافِ - وهو غيرُ الاستئنافِ البيانيِّ -، والمرادُ به هَاهُنَا: أَنْ يَكونَ عَلى إِضْمارِ (هم)، والتَّقْدير: وَهُمْ يَسْخَرونَ، فَيَكونُ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، وَيَصيرُ مِنْ عَطْفِ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ عَلى الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّة[3]، وسوَّغَ هذا العَطْفَ بينَهُمَا اشتراكُهما في الخَبَرِيَّة.

وَجيءَ في فِعْلِ التَّزْيينِ بِصيغَةِ الماضي، وَفي فِعْلِ السُّخْرِيَةِ بِصيغَةِ المُضارِعِ؛ لِأَنَّ الماضيَ يَدُلُّ عَلى التَّحَقُّقِ، وفِعْلُ التَّزْيينِ أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فيهِمْ، وأمَّا السُّخْرية فمُتَكَرِّرَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ المُضارِعَ يُفيدُ التَّجَدُّدَ، وفيه إعلامٌ للسّامِعِ أَنَّ ما هُوَ مُحَقَّقٌ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ هُوَ أَيْضًا مُسْتَمِرٌّ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الرّاسِخَ في النَّفْسِ لا تَفْتُرُ عَنْ تَكْريرِه، وَيُعْلَمُ أَنَّ ما كانَ مُسْتَمِرًّا، هُوَ أَيْضًا مُحَقَّقٌ؛ لِأَنَّ الفِعْلَ لا يَسْتَمِرُّ إِلّا وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِ فاعِلِه، وَسَكَنَتْ إِلَيْه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/353.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/618، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/294.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/354، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/297.

وَاخْتيرَ لِفعْلِ التَّزْيينِ خُصوصُ المُضيِّ، وَلِفعْلِ السُّخْريَةِ خُصوصُ المُضارَعَةِ؛ لِأَنَّ التَّزْيينَ لَمّا كانَ هُوَ الأَسْبَقَ في الوُجودِ - وَهُوَ مَنْشَأُ السُّخْريَةِ - أوثِرَ بِما يَدُلُّ عَلى التَّحَقُّقِ؛ لِيَدُلَّ عَلى مَلَكَةٍ، واعْتُمِدَ في دِلالَتِهِ عَلى الاسْتِمْرارِ بِالاسْتِتْباعِ، بخلافِ السُّخْريَةِ فإنَّها لَمّا كانَتْ مُتَرَتِّبَةً عَلى التَّزْيينِ، وَكانَ تَكَرُّرُها يَزيدُ في الذَّمِّ، أوثِرَتْ بِما يَدُلُّ عَلى الاسْتِمْرارِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ المُسْتَمِرَّ لا يَكونُ إلّا مُتَحَقِّقًا[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

عَـدَاوَةُ الْكُفَّارِ لِـلْـمُـؤْمِـنِـينَ وَسُـخْـرِيَّـتُـهُـمْ مِنْهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ إِيمَانِهِمْ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: هم فقراء المؤمنين، أمثالُ: عَمّارٍ، وَصُهَيْبٍ، وَأَبي عُبَيْدَةَ، وَسالِمٍ، وَعامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ، وَخَبّابٍ، وَبِلالٍ، وَوَجْهُ سُخْريَةِ الكُفّارِ بِالمُؤْمِنينَ أَنَّهُمُ احْتَقَروا رَأْيَهُمْ في إِعْراضِهِمْ عَنِ اللَّذّاتِ؛ لِامْتِثالِ أَمْرِ الرَّسولِ ﷺ، وَأَفْنَوْهُمْ في ذَلِكَ، وَرَأَوْهُمْ قَدْ أَضاعوا حُظوظَهُمْ وَراءَ أَوْهامٍ باطِلَةٍ؛ لِأَنَّ الكُفّارَ اعْتَقَدوا أَنَّ ما مَضى مِنْ حَياتِهِمْ في غَيْرِ نِعْمَةٍ قَدْ ضاعَ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ لا خُلودَ في الدُّنْيا، وَلا حَياةَ بَعْدَها[2].

وفي التَّعبير بالاسْم المَوْصُول وصِلَته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشعارٌ بأنَّ سببَ سُخْرية الكُفّار ليس مجرَّد بُعْد المُؤْمِنين عَنِ الاغْتِرار بالدُّنيا، وإنَّما هو إيمانُ المؤمنين الحامِلُ لَهُمْ عَلَى ذلك البُعْد.

نُكْتَةُ إِيقَاعِ الظَّاهِرِ مَوْقِعَ الضَّمِيرِ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

الـتَّـقْـوَى مِـنْ أَعْـظَـمِ أَسْبَابِ الـرِّفْـعَـةِ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ

أُريدَ بـ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ : المُؤْمِنونَ الَّذينَ سَخِرَ مِنْهُمُ الَّذينَ كَفَروا؛ لِأَنَّ أولَئِكَ المُؤْمِنينَ كانوا مُتَّقينَ، وَكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أَنْ يُقالَ: وَهُمْ فَوْقَهُمْ، لَكِنْ عَدَلَ عَنِ الإِضْمارِ إلى اسْمٍ ظاهِرٍ لِلاحْتِراس، ودَفْعِ الإيهامِ مِنِ اغْترار الكافِرين بِأَنَّ الضَّميرَ عائِدٌ إِلَيْهِمْ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296-297.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/352، 354، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296.

وخصّ التّقوى بالذّكر؛ قَصْدَ التَّنْبيهِ عَلى مَزِيَّةِ التَّقْوى، وأنَّ المتّقيَ أرفع منزلةً مِن المؤمن، وَكَوْنها سَبَبًا عَظيمًا في هَذِهِ الفَوْقِيَّةِ؛ لِيُفيدَ فَضْلَ المُؤْمِنينَ عَلى الَّذينَ كَفَروا، وَيُنَبِّهَ المُؤْمِنينَ عَلى وُجوبِ التَّقْوى والثّبات عليها؛ لِتَكونَ سَبَبَ تَفَوُّقِهِمْ عَلى الَّذينَ كَفَروا يَوْمَ القِيامَةِ[1].

وَجاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُصَدَّرَةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾؛ لِبَيَانِ أَنَّ السَّعادَةَ الكُبْرى لا تَحْصُلُ إلّا لِلمُؤْمِنِ المُتَّقي، وَلِتَبْعَثَ المُؤْمِنَ عَلى التَّقْوى، وَلِيَزولَ قَلَقُ التَّكْرارِ لَوْ كانَ: (والَّذينَ آمَنوا)؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2].

عُلُوُّ الْمُتَّقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكَانًا وَمَكَانَةً

فَوْقَ: ظَرْفُ مَكانٍ، وهو دالٌّ على الظَّرْفِيَّةِ المَكانِيَّةِ حَقيقَةً؛ لِأَنَّ المُؤْمِنينَ في عِلِّيِّينَ، والكُفّارَ في سِجّينٍ، ويحتملُ أن تكون الفَوْقِيَّةُ مَجازًا في تَناهي الفَضْلِ والسِّيادَةِ، فهي فَوْقِيَّةُ تَشْريفٍ، فالَّذينَ اتَّقَوْا عالوهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ، أي: أَنَّ العُلُوَّ يَوْمَ القِيامَةِ إنَّما هُوَ لِلمُتَّقينَ، وَغَيْرُهُمْ سافِلونَ، عَكْسُ حالِهِما في الدُّنْيا حَيْثُ كانوا يَسْخَرونَ مِنْهُمْ[3]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: 29 - 36].

الرَّغْبَةُ عَنْ ذِكْرِ الْكُفَّارِ تَحْقِيرًا لِشَأْنِهِمْ

وذكر الكافرين بالضّمير، ولم يصرّح باللّفظ؛ لأنّه تقدّم ذكرُهم، فناسب عود الضّمير إيجازًا، ورغبةً عَن ذكرهم مرّة أخرى.

وَقُيِّدَتِ الفَوْقِيَّةُ بِـ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تَنْصيصًا عَلى دَوامِها؛ لِأَنَّ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/297، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/297.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/355.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/355، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/297.

ذَلِكَ اليَوْمَ هُوَ مَبْدَأُ الحَياةِ الأَبَدِيَّةِ، ولإدخال السّرور والتّسلية على قلوب المؤمنين حتّى لا يتسرّب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لَهم في الدّنيا، وجاء التّعبير بالجملة الاسميَّة في استعلاء الذين اتّقوا؛ للدِّلالةِ على أنّه أمرٌ ثابت دائمٌ لا يطرأ عَلَيْهِ أيّ تبديل، بخلاف التَّعبير المتقدِّم عن زينة الحياة الدّنيا في نظر الذين كفروا وعَن سُخريتهم مِنَ المؤمنين؛ فقدَ جاءَ بالجُمْلَةِ الفعليّة؛ لِلْإِشَارة إلى الحدُوثِ، وأنّ ذلك أمرٌ طارئٌ، لا يَلْبَثُ أَنْ يَزُولَ بصوارف متعدّدة[1].

وَلَا يُشْكِلُ على هذا أنَّ السُّخرية وقعَ التَّعْبير عَنْهَا بالفِعْلِ المضارع، وهُوَ دالٌّ - كما تقدَّم - على الاسْتِمْرَارِ والدَّوام بقرينة الذَّمِّ؛ لأنَّ تلك السُّخريَّة صادرةٌ مِنْهُمْ على وجه الاسْتِمْرَار في الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يَنْقَطِعُ ذلكَ ويَنْعَكِسُ، فهُوَ اسْتِمْرَارٌ نسبيٌّ لا مُطْلَقٌ، بخلافِ فَوْقِيَّةِ المُؤْمِنِين على الكُفَّار يومَ القِيَامَة.

بَلَاغَةُ تذييل الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

تَشْرِيفُ المُؤْمِنِينَ وَتَكْرِيمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ

قول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ تَذْيِيلٌ قُصِدَ بِهِ تشْريف المُؤْمِنينَ يَوْمَ القِيامَةِ، وبيان عظم ثوابهم؛ لِأَنَّ التَّذْيِيلَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ مُرْتَبِطًا بِما قَبْلَهُ، فالسّامِعُ يَعْلَمُ مِنْ هَذا التَّذْيِيلِ مَعْنًى مَحْذوفًا، تَقْديرُهُ: والَّذينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ فَوْقِيَّةً عَظيمَةً لا يُحيطُ بِها الوَصْفُ؛ لِأَنَّها فَوْقِيَّةٌ مُنِحُوها مِنْ فَضْلِ اللّه، وَفَضْلُ اللّهِ لا نِهايَةَ لَهُ، وَلِأَنَّ من أسباب سُخْرِيَةِ الَّذينَ كَفَروا بِالَّذينَ آمَنوا: أَنَّهُمْ سَخِروا منهم لِفَقْرهم وإِقْلالِهِمْ، فَوَعَدَ الفُقَراءَ بِالرِّزْقِ، وفي قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعريضٌ بتهديدِ الكفَّار بقطْعِ رزقِهم وإزالةِ حَظْوَتِهم[2]، والمُؤْمِنُ وَإِنْ لَمْ يُرْزَقْ في الدُّنْيا؛ فَهُوَ فَوْقَ الكافِرِ يَوْمَ القِيامَةِ[3].

وَمَفْعولُ ﴿يَشَآءُ﴾ مَحْذوفٌ، التَّقْديرُ: مَنْ يَشاءُ أَنْ يَرْزُقَهُ، دَلَّ عَلَيْهِ ما قَبْلَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/297، ومحمود صافي، الجدول: 2/435، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 1/455.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/298.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/285.

عَظَمَةُ الْعَطَاءِ مِـنْ عَـظَـمَـةِ الْمُعْطِي

وقَوْله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كناية عن عدم العلم بمقدار الرّزق؛ لأنّ الحِسابَ هُنا حَصْرُ المِقْدارِ، فَنَفْيُ الحِسابِ نَفْيٌ لِعِلمِ مِقْدارِ الرِّزْقِ، أَيْ: بِغَيْرِ نِهايَةٍ؛ لِأَنَّ ما لا يَتَناهى خارِجٌ عَنِ الحِسابِ، وَقَدْ شاعَتْ هَذِهِ الكِنايَةُ في كَلامِ العَرَبِ كَما شاعَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَقولوا: يُعَدّونَ بِالأَصابِعِ، وَيُحيطُ بِها العَدُّ، كِنايَةً عَنِ القِلَّةِ[1]، فالكِنايةُ في الآيةِ لكثرةِ ما يُرْزَقُونَ؛ لكونه عطاءً من اللّه تعالى، وعطاؤُه سبحانه عظيمٌ؛ إذ إنَّ عظمةَ العطاءِ مِنْ عَظَمَةِ المُعْطِي.

والباءُ لِلمُصاحَبَةِ - وَهِيَ التي يُعَبَّرُ عَنْها بِباءِ الحالِ - وقد تَقَدَّمَهَا ثَلاثَةُ أَشْياءَ يَصْلُحُ تَعَلُّقُهُ بِها: الفِعْلُ، والفاعِلُ، والمَفْعولُ الأَوَّلُ؛ وَهُوَ: ﴿مَن﴾، فَإِنْ كانَ لِلْفِعْلِ؛ فَهُوَ مِنْ صِفاتِ المَصْدَرِ، وَإِنْ كانَ لِلْفاعِلِ؛ فَهُوَ مِنْ صِفاتِهِ، أَوْ لِلْمَفْعولِ؛ فَهُوَ مِنْ صِفاتِهِ، وَيَكونُ الحِسابُ مُرادًا بِهِ المُحاسَبَةُ أَوِ العَدُّ، أَيْ: يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ، وَلا حِسابَ عَلى الرِّزْقِ، أَوْ: وَلا حِسابَ عَلَى الرّازِقِ، أَوْ وَلا حِسابَ عَلى المرزوق[2]، وهو - سبحانه وتعالى المعطي المانع، وعطاؤه في الدّنيا ليس دليل رضاه عن المُعْطَى لهُ، فقد يُعطِي الكافرَ، وهو غير راضٍ عنه، أمّا في الآخرة؛ فعطاؤه دليل رضاه عمّن أعطاه.

وفي ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إطنابٌ بالإيغال، وَهُوَ: أَن يؤتى بَعْدَ تَمام المَعْنى المَقْصودِ بِكَلامٍ آخَرَ يَتِمُّ المَعْنى بِدونِهِ؛ لِنُكْتَةٍ كزيادة المبالغة وتحقيق التّشبيه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/355، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/298.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/356-357.
(3) القَزوينيّ، الإيضاح، ص: 153.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»